

في أجواء سورة الرحمن/ ج (2)



(خَلَقَ الْإِرْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارْجِ مِنْ
رَمَارٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانَ * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
الْمَغْرِبِ بَيْنَ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانَ * مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَهِيَانَ
* بَيْنَهُمَا يَرْزَحُ لَا يَبْغِيَانَ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانَ * يَخْرُجُ
مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانَ * وَلَهُ
الْجَوَارُ الْمُنْشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانَ *
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكُمَا ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ
آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ
فِي شَاءَنِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (الرحمن/ 30-14).

معاني المفردات:

(صلصال): الصلصال: الطين الباس غير المطبوخ، فإذا طبخ فهو الفخار.

(مارج): اللهب الخالص من النار، أو المختلط بسواد.

(مرج): المرج: الحاجز بين الشيئين.

(الجوار): أي السفن الجارية.

(المنشآت): المعرفوعات.

بين خلق الإنسان من صلصال وخلق الجن من نار:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلَصَالٍ كَالْفَخَّارِ) والظاهر أنَّ المراد به آدم أبو البشر الذي خلقه الله من الصلصال - كما قيل - وربما كان المراد من الإنسان نوعه، ليكون المراد من خلقه من الصلصال انتهاءً للخلق إليه. (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ زَارِ) وهو غيرُ من غيب الله الذي ابتدع وجودهما، وهو العالم بما خلق في طبيعته وعناصر وجوده، وجودهما ذاك دليل على عظمة إبداع الله، في تحويل الطين اليابس إلى وجود إنسانيٍّ حيٍّ فاعلٍ مفكِّرٍ متحركٍ بالإرادة، وتحويل اللهب الناري إلى مخلوقٍ حيٍّ واعٍ مفكِّرٍ في وجوده الحال في الأسرار، وإذا كنا لا نعرف الكثير من الجن، فإننا نعرف عنه - من خلال القرآن - أنَّه خلقٌ خفيٌّ مسؤولٌ في كلٍّ قضايا الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، (فَبَأْيٍ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) في ما تدرك أنه من خصوصية وجودهما في هذا السرِّ الإلهي العجيب الذي يفرض عليكم أن تصدقاً به، لأنَّه يمثل حضور الحقيقة في حضور الوجود في الذات؟!

(رَبُّ الْمَاءِشِرِّقَيْنَ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنَ) قد يكون المراد بذلك مشرقي الشمس والقمر ومغاربيهما، وربما كان المراد اختلاف مشرق الشمس ومغاربها تبعاً لاختلاف موقع الكره الأرضية، وربما كان المراد مشرق الشمس في الصيف، ومشرقتها في الشتاء، وكذلك مغاربها، لاختلافها في ذلك... (فَبَأْيٍ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) في ما توحى به هذه الظاهرة العجيبة من تنوع فيها الحياة؟!

من البحرين يلتقيان:

(مَرَاجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ) المراد بالبحر الماءُ الكثير عذباً كان أو غيره، والظاهر أنَّ المراد بالبحرين، العذب الفرات والملح الأجاج، وذلك كما جاء في تفسير قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرُانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَّاتٌ سَائِعٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مَلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيقًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلْبًا سُونَهَا) (فاطر/ 12).

وقيل: إنَّ المراد بالبحرين جنس البحر المالح الذي يغمر قريباً من ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من البحار المحيطة وغير المحيطة، والبحر العذب المدى في مخازن الأرض التي تنفجر الأرض عنها، فتحري العيون والأنهار الكبيرة، فتنبض في البحر المالح، ولا يزالان يلتقيان". (يَبْدِغُهُمَا بَرْزَاحٌ لا يَبْدِغُهُمَا) أي لا يطغى المالح على الحلول ليحوّله إلى مالح تبطل الحياة به، ولا يطغى الحلول على المالح، ليحوّله إلى حلول، فتبطل بذلك مصلحة ملوحته، بل يبقى لكل منهما حدوده خصوصيته في نطاق الحاجز الخفيِّ الخاضع لقدرة الله، (فَبَأْيٍ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ).

(يَخْرُجُ مِنْهُمَا الْلُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) أي من هذين البحرين المختلفين في العذوبة والملوحة، وقد تحفَّظ البعض على وجود اللؤلؤ والمرجان في البحر العذب، وأجاب البعض بأن هناك دلائل على وجودهما فيه، وقد تقدم الكلام حول هذا الموضوع في تفسير الآية الثانية عشرة من سورة فاطر، (فَبَأْيٍ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) مما يتعلّق بهذه الظاهرة العجيبة؟!

وقد ذكر في طبيعة اللؤلؤ والمرجان بعض الخصائص التي قد تحتاج إلى معرفتها كدليل على عظمة خلق الله: "لعل اللؤلؤ أعجب ما في البحار، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقه معيشته، فله شبكة كشبكة الصياد، عجيبة النسج، تكون كمفاصِّلٍ تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه، وتحول بين الرمال والحمص وغيرها. وتحت الشبكة أفواه الحيوان، ولكل فمٍ أربع شفاه، فإذا دخلت ذرة رمل، أو قطعة حصى أو حيوان ضارٌّ عنه إلى الصدفة، سارع الحيوان إلى إفراز مادةٍ لزجةٍ يغطيها بها، ثم تتجدد مكونةً لؤلؤةً، وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤة... والمرجان من عجائب مخلوقات الله، يعيش في أحوار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاث مائة متر، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصرخ أو عشب، وفتحة فمه التي في أعلى جسمه محاطةً بعدد من

الزوايد يستعملها في غذائه.. فإذا لمست فريسة هذه الزوايد - وكثيراً ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء - أصبت بالشلل في الحال، والتصقت بها، فتنكمش الزوايد وتنحنن نحو الفم، حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناةٍ ضيقةٍ تشبه مريء الإنسان.

ويتکاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه، يتم بها إخصاب البویضات، حيث يتکون الجنين الذي يلحا إلى صخرةٍ أو عشبٍ يلتقم به، ويکون حیاةً منفردةً، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلـيـ. ومن دلائل قدرةـ الخالقـ، أنـ حـیـوانـ المرـجانـ يتـکـاثـرـ بطـرـيقـةـ أـخـرىـ هيـ التـزـرـرـ. وـتـبـقـىـ الأـزـارـ النـاتـجـةـ مـذـحـدـةـ معـ الأـفـرـادـ الـتـيـ تـزـرـتـ مـنـهـاـ، وـهـكـذاـ تـكـوـنـ شـجـرـةـ المرـجانـ الـتـيـ تـكـوـنـ ذـاـتـ سـاقـةـ سـمـيـكـةـ، تـأـخذـ فيـ الدـقـةـ نـحـوـ الفـرـوعـ الـتـيـ تـبـلـغـ غـایـةـ الدـقـةـ فـيـ نـهـاـيـةـ تـبـرـاعـهـ. وـيـبـلـغـ طـولـ الشـجـرـةـ المرـجاـنيـةـ ثـلـاثـيـنـ سـتـيـمـيـرـاـ. وـالـجـزـرـ المرـجاـنيـةـ الـحـيـةـ ذاتـ أـلـوـانـ مـخـلـفـةـ، نـراـهـاـ فـيـ الـبـحـارـ صـفـرـاءـ بـرـقاـليـةـ، أـوـ حـمـرـاءـ قـرـنـفـلـيـةـ، أـوـ زـرـقاءـ زـمـرـديـةـ، أـوـ غـبـرـاءـ باـهـتـةـ، وـالـمـرـجـانـ الـأـحـمـرـ هوـ الـمـحـورـ الـمـلـبـ الـمـتـبـقـيـ بـعـدـ فـنـاءـ الـأـجـزـاءـ الـحـيـةـ مـنـ الـحـيـوانـ وـتـكـوـنـ الـهـيـاـكـلـ الـحـجـرـيـةـ مـسـتـعـمـرـاتـ هـائـلـةـ.

وـمـنـ هـذـهـ الـمـسـتـعـمـرـاتـ سـلـسلـةـ الـمـخـورـ الـمـرـجاـنيـ الـمـعـرـوفـ بـاسـمـ الـحـاجـزـ الـمـرـجاـنيـ الـكـبـيرـ الـمـوـجـودـ بـالـشـمـالـ الـشـرـقـيـ لـأـسـتـرـالـياـ. وـيـبـلـغـ طـولـ السـلـسلـةـ أـلـفـاـ وـ35ـ مـيـلـاـ. وـهـيـ مـكـوـنـةـ مـنـ هـذـهـ الـكـائـنـاتـ الـحـيـةـ الـدـقـيقـةـ الـحـجمـ".

ولهـ الجـوارـ الـمـنـشـآـتـ فـيـ الـبـحـرـ:

(وـلـهـ الـجـوارـ الـمـنـشـآـتـ فـيـ الـبـحـرـ) وـهـيـ السـفـنـ الـبـارـزـةـ فـيـ الـبـحـرـ الـذـيـ يـتـساـوىـ سـطـحـهـ بـحـيثـ يـبـرـزـ بـوـضـوـحـ كـلـّـ شـيـءـ يـتـحـرـكـ فـيـهـ، وـلـذـكـ تـبـدـوـ هـذـهـ السـفـنـ لـلـرـائـيـ مـنـ بـعـدـ تـمـاماـ (كـالـأـعـلـامـ) وـهـيـ الـجـبـالـ الـتـيـ تـتـرـاءـيـ لـلـنـاطـرـ عـنـ بـعـدـ، وـرـبـماـ كـانـ التـشـبـيـهـ بـلـحـاظـ اـرـتـفـاعـهـ وـضـخـاـمـتـهـ، كـمـاـ فـيـ السـفـنـ الـضـخـمـةـ، وـإـذـ كـانـتـ السـفـنـ مـنـ صـنـعـ الـإـنـسـانـ بـشـكـلـ مـبـاـشـرـ، فـإـنـ نـسـبـتـهـ إـلـىـ إـلـهـ وـاعـتـيـارـهـاـ مـنـ آـلـائـهـ، يـعـودـ إـلـىـ كـوـنـهـ أـلـهـمـ الـإـنـسـانـ صـنـعـهـ، وـأـوـدـعـ فـيـ أـجـوـاءـ الـبـحـرـ الـقـوـانـينـ الـتـيـ تـسـهـلـ مـهـمـةـ جـرـيـانـهـ، أـمـاـ مـكـمـنـ النـعـمـةـ فـيـهـ، فـقـيـ تـيـسـيرـهـ سـبـلـ الـاـنـتـقـالـ لـلـنـاسـ مـنـ مـكـانـ إـلـىـ مـكـانـ.

(فـيـ أـيـ آـلـاءـ رـبـ كـمـاـ تـكـدـشـ بـأـنـ) إـذـاـ كـانـتـ الـمـسـأـلـةـ فـيـ نـعـمـاـ بـهـذـاـ الـوـضـوـحـ الـذـيـ يـفـرـضـ نـفـسـهـ عـلـىـ الـحـسـ وـالـوـجـدانـ، فـلـابـدـ لـكـماـ مـنـ الـاـسـتـغـرـاقـ فـيـ عـظـمـاـ وـالـاـنـفـتـاحـ عـلـىـ مـوـاـقـعـ طـاعـتـهـ وـعـبـادـتـهـ...).

كـلـّـ مـنـ عـلـيـهـ فـانـ:

(كـلـّـ مـنـ عـلـيـهـ فـانـ) فـسـتـمـوتـ كـلـ هـذـهـ الـمـخـلـوقـاتـ الـحـيـةـ الـتـيـ تـدـبـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـسـتـنـتـقـلـ إـلـىـ عـالـمـ آـخـرـ بـوـاجـهـ فـيـهـ الـجـنـ وـالـإـنـسـ نـتـائـجـ مـسـؤـلـيـةـ مـاـ اـكـتـسـبـاهـ عـلـىـ الـأـرـضـ، وـهـذـاـ هـوـ سـرـ الـعـظـمـةـ فـيـ قـدـرـةـ إـلـهـ، الـذـيـ أـبـدـعـ الـخـلـقـ بـقـوـتـهـ، وـدـبـرـهـ بـحـكـمـتـهـ، ثـمـ أـمـاتـهـ بـقـدـرـتـهـ، فـيـ نـطـاقـ خـلـةـ حـكـيـمـةـ جـعـلـتـ لـلـحـيـاةـ وـلـلـمـوـتـ حـدـودـاـ (وـيـأـقـيـ وـجـهـ رـبـكـ ذـوـ الـجـلـالـ وـالـإـكـرـامـ)، فـهـوـ الـحـقـيـقـةـ الـأـزـلـيـةـ الـخـالـدـةـ الـتـيـ لـمـ تـنـطـلـقـ مـنـ مـوـقـعـ الـحـدـوثـ وـالـخـلـقـ، لـيمـكـنـ أـنـ يـعـرـضـ الـفـنـاءـ عـلـيـهـ، وـذـكـرـ وـجـهـ إـلـهـ كـنـاـيـةـ عـنـ ذـاـتـهـ الـمـقـدـسـةـ، لـأـنـ وـجـهـ الشـيـءـ هـوـ الـذـيـ يـعـبـرـ عـنـهـ، وـقـدـ يـكـوـنـ فـيـ التـرـكـيـزـ عـلـىـ صـفـتـيـ الـجـلـالـ وـالـإـكـرـامـ إـشـارـةـ إـلـىـ مـعـنـىـ الـعـظـمـةـ الـتـيـ تـخـتـرـنـهـاـ كـلـمـةـ الـجـلـالـ وـمـاـ تـوـحـيـ بـهـ مـنـ هـيـبـةـ، وـإـلـىـ مـعـنـىـ النـعـمـةـ فـيـ رـوـحـ الـعـطـاءـ الـتـيـ تـتـضـمـنـهـاـ كـلـمـةـ الـإـكـرـامـ وـمـاـ تـوـحـيـ بـهـ مـنـ رـحـمةـ.

(يـسـأـلـهـ مـنـ فـيـ السـمـاءـ وـاـتـ وـاـلـأـرضـ) لـأـنـ وـجـودـهـ بـكـلـ تـفـاصـيـلـهـ الصـفـيـرـةـ وـالـكـبـيـرـةـ مـفـتـقـرـ إـلـيـهـ، وـبـذـلـكـ يـكـوـنـ السـؤـالـ مـنـ خـلـالـ الـتـعـبـيرـ الـحـسـيـ تـارـةـ، وـمـنـ خـلـالـ الـحـاجـةـ الـوـجـودـيـةـ الـطـبـيـعـيـةـ أـخـرـىـ (كـلـ يـوـمـ هـوـ فـيـ شـأـنـ) فـهـوـ الـمـهـيـمـنـ عـلـىـ كـلـ الـأـشـيـاءـ، وـكـلـ الـشـؤـونـ، لـاـ يـتـجـمـدـ تـصـرـفـهـ فـيـ مـوـقـعـ وـلـاـ يـقـفـ عـنـدـ حـدـدـ، وـهـوـ يـدـبـرـ الـكـوـنـ كـلـ يـوـمـ بـطـرـيقـةـ تـمـلـيـهـاـ شـؤـونـهـ الـمـتـجـدـدـةـ، مـاـ يـجـعـلـ أـفـعالـهـ تـتـجـدـدـ وـعـطـاـيـاهـ تـتـنـوـعـ فـيـ صـنـعـ الـوـجـودـ فـيـ مـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ الـوـجـودـ، وـفـيـ تـدـبـirـ ماـ يـحـتـاجـ إـلـىـ الـتـدـبـirـ، وـقـدـ جـاءـ فـيـ رـوـاـيـةـ الـصـادـقـ (عـ)، عـنـ آـبـائـهـ - عـلـيـهـمـ السـلـامـ -، أـنـ النـبـيـ مـحـمـدـ دـاـ (صـ) قـالـ: "إـلـهـ تـعـالـىـ كـلـ يـوـمـ هـوـ فـيـ شـأـنـ، فـإـنـ مـنـ شـأـنـهـ أـنـ يـغـفـرـ ذـنـبـاـ، وـيـفـرـجـ كـرـبـاـ، وـيـرـفـعـ قـومـاـ، وـيـبـعـ آـخـرـينـ"، وـهـوـ مـنـ بـابـ الـحـدـيـثـ عـنـ الـمـصـادـيقـ.

المصدر: كتاب من وحي القرآن/ المجلد الحادي والعشرون